تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار

للاب هنري لامنس اليسوعيّ (تابع لما سبق)

القسم الثاني

جغرافية لبنان وتعريف الامم التي سكنتهُ

١ اسم لبنان وسعة نطاقهِ في التاريخ

قد بلغ بنا تقصّينا لآثار لبنان الى تخومهِ الشماليّة فرأينا ان نحطّ برهةً عصا التسيار لنبحث في قسم ثانٍ عن بعض احوال هذا الجبل الشهير مما يشمل تاريخهُ اجمالاً ويعمُّ شؤونهُ من حيث تقاسيمهِ الجغرافيّة مع تعريف الامم التي سكنتهُ في سالف الاعصار . وهو امرٌ يفيدنا لادراك ما بقي علينا من وصف آثارهِ في جهاتهِ الأُخر

لا جرم ان القارئ اللبيب قد لحظ في خلال فصولنا السابقة انَّ اسم لبنان لم يُطلق في كلّ اطوار التاريخ على ثغور معروفة ورُبَّما اتسع او انحصر معناهُ على اختلاف الظروف وترعات الكتّاب . فلحسْر لثام الشبهات وازالة كلّ المعضلات رأينا ان نبيّن حدود لبنان في الازمنة الغابرة بما امكن من التدقيق

ليس من احد يجهل اليوم موقع لبنان ونواحيهُ الاربع وكلٌّ يعرف انَّ المراد بهِ تلك السلسلة الجبليّة الممتدة بين البحر المتوسّط او بحر الشام والنهرين الشهيرين النهر الكبير والليطاني

بيد ان معنى لبنان لدى القدماء لا ينطبق على مفهومنا بهِ في عهدنا . واوّل ما ينبغي استفتاؤهُ من كتب التاريخ الاسفارُ المقدسة فان هذا الاسم ورد فيها على صورة لَبْنُون (לְבָנוֹן) وهكذا عرفهُ ايضاً الفينيقيُّون . اما الاشوريون فيدعونهُ لَبْنانو . ومما يستفاد من الكتاب الكريم انَّ لبنان جبل شاهق فخيم في شمالي نهر الليطاني يحدّ ارض الميعاد من تلك الجهة

وقد تكرَّر ذكر لبنان في صُحُف العهد القديم وان كان هذا الجبل خارجاً عن

ملك اسرائيل . واكثر ما ورد اسمهُ في اوصاف الكتاب الشعريَّة كما اثبتنا ذلك في مقالتنا عن ارز لبنان (المشرق ١ : ٩٣٠—٩٣٨) . وذكروا بين خواصهِ الشاروج الغراء التي تكلَّل هامتهُ (راجع سفر ارميا ١٨ : ١٤) فبيَّنوا بهذه الاوصاف انهم ارادوا لبنانا دون سواهُ

ومما جاء ذكرهُ ايضاً في الكتاب الكريم وادي البقاع الخصب الذي يفصل لبنان عن جبل الشيخ وهو يدعى هناك « مدخل حماة » او « الطريق الى حماة (١ » وهو اسم يطابق المسمى لانَّ سهل البقاع اشبه بطريق لاحبة تنفذ بين جبلين عاليين . وفي هذا الاسم ما يُشعر بخطر مدينة حماة وعظم شأنها وهي اول مدينة كبرى كان بنو اسرائيل يلقونها عند خروجهم من تخومهم الشماليَّة الشرقية . اما اليونان (٢ فيدعون البقاع باسم ماسياس (Massyas) او مرسياس (Marsyas) وربَّما دعوها ايضاً بسوريَّة المجوَّفة (Célésyrie) لانعطافها بين الجبلين على شبه الجوف (٣

ويؤخذ من سفر الملوك الثاني (٨ : ٨) ان لبنان كان غنياً بمعادن النحاس . والمرجَّح ان موقعها كان على العطف الشرقي من لبنان الحالي بازاء سهل البقاع

على ان اصحاب الصحُف الكريمة لا يفرقون بين لبنان الغربي والشرقي فاطلقوا على كليهما اسم لبنان . وهو امرٌ يسهل ادراكهُ لانَّ الجبلين متشابهان تشابهاً تاماً يسيران على خطين متوازيين الى وجهة واحدة وطولها واحدٌ على التقريب وهما يتركبان من صخور كلسيَّة متجانسة . ولا غرو انهما كانا في القرون الخالية جبلاً واحداً فنفصل بينهما حادث جيولوجي غيَّر هيئتهما فانخسفت بينهما الارض وليس وادي البقاع الا نتيجة هذه القارعة . ومن ثمَّ لا حرج على كتبة الاسفار المقدسة اذا اعتبروا هذين الجبلين كطود واحد ولن كانوا لم يدققوا في تعريفهما كما يفعل اليوم الجغرافيون . وليس الامر كذلك في تعريف اسطرابون لهذين الجبلين فانهُ قد رسمهما رسماً جسيماً في بيان وجهتهما كما سترى

---

١) راجع سفر العدد ١٣ : ٢٢ و ٣٤ : ٨ ويوشع ١٣ : ٥ الخ وحزقيال ٤٧ : ٢٠ الخ وعاموس ٦ : ١٤ الخ

٢) راجع تاريخ بوليب ك ٥ ف ٤٥ ، ٤٦ ، ٦١ وجغرافية اسطرابون ك ١٦ ف ٢ ، ١٠ الخ

٣) راجع معجم الكتاب الاقدس لفيكورو في المادة وجغرافية فلسطين القديمة لبول (Buhl) ص ٨٢

واوّل من احكم الفصل بين الجبلين السابق ذكرهما كتبةُ اليونان فانهم قد افرزوا بينهما وخصُّوا احدهما باسم لبنان ودعوا الآخر انتيليبانوس (Ἀντιλίβανος, Antiliban) ومعناهُ الجبل القائم بازاء لبنان وكلا الاسمين شائع حتى ايامنا بين الكتبَة. ومما يدلُّ على قِدَم اسم انتيليبانوس ان اصحاب الترجمة السبعينيَّة في القرن الثالث قبل المسيح نقلوا اسم لبنان العبراني الى اليونانيَّة باسم انتيليبانوس لمَّا رأوا انَّ مدلولهُ الجبل الشرقي لا لبنان الحالي. وذلك في خمسة اماكن من الاسفار الالهيَّة (١). وكذلك ورد في في النصّ اليوناني من سفر يهوديت (١:٧)

وان تصفَّحنا تآليف يوسيفوس اليهودي وجدناهُ مترددًا في تعريف لبنان كانهُ لم يطَّلع على اصطلاح اليونان وهو يكتب في لغتهم. فتراهُ اذا ذكر جبل حرمون والجبال المجاورة لدمشق دعاها كلها باسم لبنان

وما لا ريب فيهِ ان كتبة العهد القديم اذا ما ذكروا لبنان وارادوا بهِ الجبل الموازي لهُ انَّما مرادهم فقط القسم الجنوبي من هذا الجبل المعروف اليوم باسم جبل الشيخ وذكرهُ كثيرٌ في التوراة. وقد دوَّنا في بعض مقالاتنا السابقة اسماء جبل حرمون عند قبائل سوريَّة وفلسطين فلا حاجة الى التكرار والى بيان صحَّة هذه الاسماء لئلاَّ نخرج عن الموضوع

امَّا اتساع لبنان وحدودهُ فانَّ الكتاب المقدَّس لا يذكر غير حدّهِ الجنوبيّ اعني شمال نهر الليطاني. ومن ثمَّ لا بُدَّ من نقل نصوص قدماء اليونان لتعريف هذه الحدود

*

لعلَّ المؤرخ پوليب (٢ اوَّل من سبق فبيَّن بضبط وتدقيق تخوم لبنان. وهو يفصلهُ عن الجبل الشرقي فصلًا صريحًا ويذكر بين السلسلتين سهل البقاع ويجعل في هذا السهل مخرج نهر العاصي. وممَّن اجادوا في تعريف اتساع لبنان ديودور الصقلي (٣ في القرن الاول قبل الميلاد قال انَّ لبنان يمتدُّ من صيداء الى جبيل وطرابلس وانَّ غابات الأرز تظلّل قمهُ (٤

(١) تثنية الاشتراع ١:٧؛ ٣:٢٥؛ ١١:٢٤ يوشع ١:٤؛ ٩:١

(٢) في كتابهِ الخامس (ف ٤٥، ٥٩، ٦٦) (٣) ك ١٩ ف ٥٨

(٤) راجع المشرق (٩:١٢٤)

امَّا معاصرهُ اسطرابون فانَّ في كلامهِ لبساً وابهاماً وهاك تعريب ما كتب قال: انَّ سوريَّة المجوَّفة واقعة بين جبلين تفصلهما على التقريب مسافة واحدة في طولها. وكلاهما يبتدئ قريباً من البحر امَّا لبنان فانَّ اوَّلهُ عند طرابلس وجبل ثيوپروسوپون (راس الشقمة. راجع المشرق ٥ : ١٠٧) واما جبل انتيليبانوس فبدؤهُ بقرب صيداء (كذا) وهما ينتهيان عند الجبال العربيَّة التي تُشرف على اقليم دمشق » وفي الفصل ذاتهِ قد اثبت اسطرابون انَّ منتهى لبنان عند راس الشقمة وهو يروي انَّ اعالي لبنان كصنَّان وبوردوما يأوي اليها قوم من اللصوص وقطَّاع الطرق. وكذلك يزعم انَّ هؤلاء الاوباش يملكون على البقرون وجيفرتا ويسكنون الكهوف المشرفة على البحر وحصن الشقمة (١

فترى ممَّا تقدَّم انَّ اسطرابون يفرق بين لبنان والجبل الشرقي ويجعل بينهما سهل البقاع وكذلك لم يشذَّ عن الصواب اذ دلَّ على حدود لبنان الشماليَّة وهو يجعلها تقريباً عند طرابلس لانَّ جبل عكَّار يُعدّ ايضاً من لبنان فيتَّصل بهِ ويمتدّ بعض اميال الى النهر الكبير الذي يحجز لبنان عن جبال النصيريَّة. غير انَّ اسطرابون وهم وهماً جسيماً بزعمهِ ان كلا الجبلين يبدأ بقرب البحر عند صيداء وهو خطأ لا صحَّة لهُ في انتيليبانوس. وكذلك قد اخطأ بقولهِ انَّ الجبلين ينتهيان عند دمشق وهذا لا يصدق عن لبنان وقد ساء ظنَّهُ في الجبلين اذ وصف سيرهما من الغرب الى الشرق اي من البحر الى داخل بلاد الشام وهما في الحقيقة يسيران من الشمال الى الجنوب فيجاريان بسيف البحر

امَّا التفاصيل التي ذكرها اسطرابون عن لبنان ولصوصهِ فقد سرَّ ذكرها في محلِّها مع بيان ما صدق منها

وفي وصف بليني وس (٢ للبنان ما هو اقرب الى حقيقة من سواهُ. وهو يجعل اوَّل لبنان عند صيداء ثمَّ يذكر امتدادهُ شمالاً الى مدينة سيمرَّة القديمة اعني وراء مصبّ النهر الكبير بقليل حيث يبتدئ جبل برجيلوس وهو جبل النصيريَّة. وناهيك بهذه الافادة تدقيقاً وضبطاً. وكذلك لم يندَّ في وصفهِ لبنان وتمييزهِ عن الجبل الشرقي وذكر البقاع وذكر العيون التي يتكوَّن منها العاصي

١) المشرق (٥ : ١٠٧—١٠٩)

٢) راجع تاريخهُ الطبيعي (ك ٥ ف ٧٨)

وممن ذكروا لبنان من قدماء النصارى اوسابيوس القيصري في كتاب الأعلام (Onomasticon) وتبعهُ القديس هيرونيموس وكلاهما يقول ان لبنان من سلسلة الجبال الغربيَّة المحاذية لبحر فينيقية امَّا السلسلة الشرقيَّة من جهة دمشق فجبل انتيليبانوس اي الجبل الشرقيّ

فترى من ثمَّ ان القدماء في حدود القرن الرابع كانوا وقفوا على حقيقة موقع لبنان وافرزوهُ عن الجبل الذي هو قائم في وجههِ وبيَّنوا وجهة امتدادهما. غير ان كتبة القرون التالية عادوا فخلطوا بين الجبلين. وممَّا افضى بهم الى هذا اللبس التقاسيم السياسيَّة التي ادخلها ملوك الروم في ذلك العهد فاختلطت الاسماء وصارت الاعلام تدل على غير ما وُضعت لهُ سابقًا

فمن ذلك ان سوريَّة المجوَّفة التي كانت تدلُّ في اول الامر على سهل البقاع ليس الَّا اضحت اقليمًا واسعًا يمتدُّ شمالًا الى ما وراء انطاكية بحيث اضحت هذه المدينة قصبةً لهُ. وكذلك لم يعد اسم فينيقية يُطلق على الساحل المنحصر بين لبنان والبحر بل صار يعني بلادًا متسعة تبلغ حدودها الى دمشق وحمص وتدمر

وعلى هذا المنوال تغلَّب اسم لبنان الشهير على جبل النصيريَّة المجاور اذ لا يفصل بينهما الَّا وادي النهر الكبير. فأبطل اسم برجيلوس الذي خصَّهُ بهِ بلينيوس الكاتب واعتُبر كأنَّهُ لاحقٌ بلبنان

ومن غريب ما جرى وقتئذٍ من التقلُّبات في تقسيم الايالات ان الاقليم المعروف بفينيقية اللبنانيَّة لم يضمّ في دائرتهِ لبنان الغربي بينما كان محتويًا على تدمر مع بعدها عن لبنان. وكفى بذلك دليلًا على انَّ اسم لبنان لم يؤخذ بمعناهُ الاصلي او انَّهُ كان ادلَّ على جبل انتيليبانوس منهُ على لبنان لاسيَّما بعد ان جُعلت مدينة دمشق كعاصمة فينيقية اللبنانيَّة. ولذلك نرى في اعمال القديس صوفرونيوس الدمشقي انهُ دعا وطنهُ « المتزَّج بلبنان » (λιβανοσταφανος) ولعلَّ هذا اللقب حمل البعض على الظن بانهُ لبناني الاصل

وعُدَّت حمص قبل دمشق مدَّةً كقصبة ولاية فينيقية اللبنانيَّة فصار الاهلون يدعون الجبال الواقعة بازائها وفي شماليها باسم لبنان وهكذا شمل هذا الاسم جبال النصيريَّة. وفي تاريخ سوزومين (ك ٣ ف ١٥) ترى اسم لبنان مختصًّا بالجبال المحاذية لمدينة افامية. واغرب من ذلك ان تاوفانس المؤرخ في اثناء كلامهِ عن المدَّة اطلق اسم لبنان على

كل جبال الشام الواقعة بين مصبّ نهر العاصي والقدس الشريف (١ . وقد جرى بعضُ المؤرخين البوزنطيين على هذا الاصطلاح نخصُّ منهم بالذكر المؤرخ قدريتوس

*

ولمّا ظهرت دولة العرب حفظ ملوكُهم التقاسيمَ الجغرافيّـة الجارية قبل عهدهم ولذلك ترى الكتبة السريان كابن العبري(٢ وجغرافيّي العرب يتأثرون اعقاب الروم في وصفهم جبل لبنان فربّما اصابوا او اخطأوا كاسلافهم . فالمقدسي مثـلًا يقول في كتاب معرفة الاقاليم (ص٦٠) انَّ لبنان جبل ساحلي مشرف على صيداء وطرابلس . امّا ابن الفقيه الهمذاني (ص١١٢) فانهُ يزعم « انَّ لبنـان بدمشق وانهُ متصل ببلاد الروم » يريد قيليقية . وبوصفهِ هذا اطلق اسم لبنان على جبل الشيخ وعلى كل الجبال الواقعة شمالي سوريّة حتى اللكّام وقسم من جبل طورس وهو تعريف واسع لم يخطر على بال كتبة الروم

وقال ابن جبير في رحلتهِ (ص ٢٥٦): « وراء البقعة جبـل لبنان وهو سامي الارتفاع ممتدّ الطول يتصل من البحر الى البحر وفي صفحتهِ حصون للملاحدة الاسماعيليّة وجبل لبنان حدٌّ بين المسلمين والافرنج لانَّ وراءهُ انطاكية واللاذقيّة وسواهما من بلادهم » فترى من قولهِ هذا انهُ ادخل في لبنان بلاد الاسماعيليّة الواقعة في جبـل النصيريّة بين اللاذقية وحماة وهناك كانت حصونهُ كصياد والرصافة وخرابي وكهف والعُلّيقة

وياقوت في تعريف لبنان أقوالٌ غريبة قال (٢ : ١١٠ و ٤ : ٣٤٧) : « لبنان جبل مطلّ على حمص يجيء من العرج الذين بين مكة والمدينة حتى يتصل بالشام . . . ويمتد الى ملطية وسميساط وقاليقالا الى بحر الخزر » فيجعـل كل هذه الجبال جبلًا واحدًا تختلف اسامـيهِ باختلاف الامكنة . واختصاصـهُ باسم لبنان يبتدئ في حلب وحماة وحمص

وقد ذكر شمس الدين الدمشقي في كتابهِ عجائب البرّ والبحر غير مرّة اسم لبنان

---

١) راجع تاريخهُ في اعمال الاباء اليونان لمين (ج ١٠٨ ص ٧٢١)

٢) راجع تاريخهُ المدني بالسريانية (ص ٢٨٣)

وكلامهُ في التالب مصيب الّا انهُ يجعل حدودهُ الشمالية الى اللاذقية ويعتبر لبنان كقسم من سلسلة عظمى اولها في جنوبي بلاد العرب

اما ابن بطوطة (١: ١٨٥) فيلوح من ظاهر كلامهِ انهُ يُطلق اسم لبنان على الجبل الممتد بين اللاذقية وطرابلس حيث وجد النصيريّة فوصفهم. وكان النصيريّة وقتئذٍ يسكنون ليس فقط الجبل المعروف باسمهم وجبل عكّار بل ايضاً البلاد المجاورة لطرابلس والبترون حتى نواحي العاقورة وكسروان وذلك الى القرن الرابع عشر للمسيح كما سنبيّن الامر في مقالة آتية. ولهذا السبب قد امكن ابن بطوطة ان يدعو باسم لبنان كلّ بلادهم (١

وأضبطُ العرب وصفاً للبنان الكاتب الشهير ابو الفداء صاحب حماة ولا غرو اذ كان اصلهُ من بلاد تجاور لبنان فانهُ في وصفهِ (ص ٦٨ و ٢٢٩) يميّز لبنان عن جبل دمشق وقد دعا طرف هذا الجبل الجنوبي باسم جبل الثلوج ويدعو باسم سنير طرفهُ الشمالي وهو أنتيليبانوس. وسنير احد الاسامي الواردة في التوراة يراد بهِ حرمون وأُطلق حسب رأينا على كل القسم الشمالي من هذا الجبل. وذلك امرٌ يُستنتج من كتبة العرب وهم شهود صدق على التقليد القديم

وقد جعل ابو الفداء لبنان بازاء جبل الثلج يمتد الى شرقي طرابلس فاذا تجاوزها عُرف بجبل عكار. وهو قول صواب يجري عليهِ ايضاً القلقشندي من بعدهِ. اما الجبل الواقع في شمال جبل عكار فان ابا الفداء يدعوهُ جبل اللكّام (ص٦٨). وهكذا ايضاً قد جعل الاصطخري وابن حوقل حدود لبنان الشماليّة بالقرب من مدينة حماة

هذه بعض نصوص نقلناها عن جغرافيّي العرب تبيّن ان هؤلاء الكتبة اصابوا في كثير من اقوالهم عن لبنان وان وهموا في بعض الامور اخذوها عن كتبة الروم دون ان يتحققوها بانفسهم لاسيما في ما يختصّ بتعريف حدود لبنان الشرقيّة. فسبحان من تنزّه عن كل خطإٍ وعيب (ستأتي البقيّة)

---

١) راجع مقالتنا عن سكنى النصيرية في لبنان في مجلة الشرق المسيحي